

الأداة والسياق

مقارنة في تراث بعض النحاة العرب المتقدمين

د. عامر فائل محمد بلحاف

أستاذ اللغة والنحو المشارك -

كلية العلوم والآداب - بقسم

اللغة العربية جامعة نجران

المملكة العربية السعودية

An Abstract

This paper deals with the perspective of the old Arab Grammarians on the grammatical particle to be considered an utterance within a context, and obtains its meaning from it. Moreover, the particle does not possess a single meaning, but its meaning may vary according to the context. This paper consists of introduction and three sections. The introduction explicates concepts of the particle and context. The first section presents a scholarly traditional material for particles which grammarians disagreed about their meanings due to the different contexts in which these particles were used. The second section is exclusive to prove that the rule of particle is an utterance within a context which was understandable by old Arab grammarians. The third section deals with stylistic. Considering the different meanings of a particle in varieties contexts, represent pattern of a unique and innovative stylistic that adds to the context a kind of novelty and excitement.

ملخص

يعالج هذا البحث نظرة بعض النحاة العرب المتقدمين للأداة النحوية بعدّها لفظة في سياق، تكتسب معناها منه، ولا تتوقف في هذا الاكتساب عند معنى وحيد؛ بل قد يتعدد معنى الأداة الواحدة باختلاف السياق الذي ترد فيه؛ لذا تألف البحث من تمهيد وثلاثة مباحث: عنى التمهيد بتجلية مفهوم الأداة من جهة، ومفهوم السياق من جهة أخرى. وساق المبحث الأول مادة علمية تراثية في أدوات اختلاف النحاة في معناها لاختلاف السياق الذي وردت فيه، وخُصص المبحث الثاني لإثبات أنّ قاعدة (الأداة لفظة في سياق) كان فهمها متحققاً عند نحاة العربية الأوائل، وعنّى المبحث الثالث بالأسلوب باعتبار أنّ خروج الأداة عن معناها يمثل نمطاً أسلوبياً فيه من التفرد، والإبداع، والأسر، والجذب الشيء الكثير، ويضفي على السياق نوعاً من التجديد والتشويق.

مقدمة

الأدوات قسمٌ من أقسام الكلام، وضرورة من ضرورات ربطه وتحقيق الانسجام فيه، وقد حظيت منذ القدم بعناية العلماء واهتمامهم، وكانت بدايتهم مع معاني هذه الأدوات، حين أخذ المفسرون، والبلاغيون وعلماء اللغة يفصلون المعاني المختلفة للأداة الواحدة في النصوص القرآنية، ثم تطوّر هذا العلم وارتقى، حتى استقل بميدانه الخاص، ولم يقصر عنايته على المعاني فقط؛ بل تجاوزها إلى: بنية الأداة، وأوجه استعمالها، وأحكامها النحوية.

وقد تناول علماءنا الأوائل في مؤلفاتهم هذه الأدوات بالتفسير والإيضاح، كما نرى عند سيويه: في (الكتاب)، والمبرد في (المقتضب)، والفراء في (معاني القرآن). ولعلّ أول مؤلّف متخصص في هذا المجال وصل إلينا هو (حروف المعاني) للزجاجي (ت 340 هـ)، وله أيضًا (اللامات)، ثم تلاه (منازل الحروف)، و (معاني الحروف) للرماني (ت 388 هـ)؛ غير أنّ أهم ما كُتب في هذا المجال أربعة مؤلفات، هي: الأزهية في علم الحروف للهروي (ت 415 هـ)، ورصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (ت 702 هـ)، والجنى الداني في حروف المعاني للمراي (ت 749 هـ)، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري (ت 761 هـ).

حاول هذا البحث دراسة الأداة النحوية باعتبارها لفظةً في سياق، وأثر ذلك السياق بنوعيه - المقالي والمقامي - في إكساب الأداة معنى أو معاني متعددة؛ لذا قدّم في مبحثه الأول مادةً علميةً تراثية لمواضع اختلف فيها بعض النحاة في معنى أداة ما بسبب اختلافهم في تفسير السياق وما قد يقتضيه من معنى. ومضى في مبحثه الثاني محاولاً إثبات أنّ هذا الفهم كان متحققاً لدى نحاة العربية عند حديثهم عن الأدوات النحوية ومعانيها. وخصّص مبحثه الثالث للأداة والأسلوب. وتم ذلك كلّ بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي القائم على التحليل، ومن خلال الإفادة من المصادر المتصلة بموضوع البحث وجزئياته.

مقدمة: في الأداة والسياق

الأداة في اللغة بإطلاق: الآلة التي يستعملها رب الحرفة في عمله من صانع ومزارع ونجارٍ وخياط، فيقال: أداة النجارة، وأداة الخياطة، وقد يُطلق على هذه الأداة اسم: الآلة، فيقال: آلة النجارة، وآلة الخياطة. جاء في القاموس: «والأداة: الآلة. جمع أدوات»⁽¹⁾. وجاء في اللسان: «ألف الأداة واوٌ، لأنَّ جمعها أدوات، ولكل ذي حرفة أداة، وهي آله التي تقيم حرفته...»⁽²⁾.

أمَّا في الاصطلاح⁽³⁾، فقد عرّف جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) الأدوات بقوله: «الحروف وما شاكلها من الأسماء، والأفعال، والظروف»⁽⁴⁾، ولم يرد هذا التعريف في مؤلفاته النحوية؛ بل ورد في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) عند حديثه عن النوع الأربعين، والخاص بمعرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر. وذكر التهانوي أن: «الأداة عند النحاة والمنطقيين هو الحرف المقابل للاسم والفعل»⁽⁵⁾. أمَّا معاجم الاصطلاحات اللغوية الحديثة، فيكتفي معظمها بذكر اصطلاح (الأداة) مقرونًا بالمصطلح الأجنبي (Particle)، وقد يزيد بعضها: «كلمة ذات وظيفة نحوية عادة، ويُطلق عليها أيضًا اسم: كلمة وظيفية»⁽⁶⁾. وستعتمد هذه الدراسة التعريف

(1) القاموس المحيط، مادة (أ د و).

(2) لسان العرب، مادة (أ د و).

(3) لا تطالعنا معاجم اصطلاحات مشهورة كالتعريفات للجرجاني، والكليات للكفوي بالتعريف الاصطلاحي للأداة.

(4) الإتقان في علوم القرآن 1 / 140.

(5) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص (127).

(6) ينظر على سبيل المثال:

■ معجم علم اللغة النظري، لمحمد الخولي، ص (203).

■ معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، لباكلا وآخرين، ص (66).

الاصطلاحي للسيوطي، فأينما وردت لفظة (أداة) فهي تعني بها: الحروف وما شاكلها من الأسماء، والأفعال، والظروف.

وأما السياق؛ فهو في اللغة مصدر للفعل (ساق) الذي يشير أحد معانيه إلى التابع⁽¹⁾، فكأنَّ المقصود منه: تتابع الكلمات في نسق معيّن، وهو في الاصطلاح على قسمين: السياق اللغوي ويُعرف كذلك بـ (سياق الحال)، والسياق غير اللغوي، الذي يُعرف أيضًا بـ (سياق الموقف) أو (المقام). ويُعرّف السياق اللغوي بأنّه: «البيئة اللغوية التي تحيط بصوت، أو فونيم، أو مورفيم، أو كلمة، أو عبارة، أو جملة»⁽²⁾. ويُعرّف السياق غير اللغوي بأنّه: «السياق الذي جرى في إطاره التفاهم بين شخصين، ويشمل: زمن المحادثة ومكانها، والعلاقة بين المتحادثين، والقيم المشتركة بينهما، والكلام السابق للمحادثة»⁽³⁾.

ويحاول هذا البحث معالجة معنى الأداة باعتبارها لفظة في سياق، فذكر أولاً خلاف النحاة العرب المتقدمين في معنى الأداة لاختلافهم في تفسير السياق، وأعقب ذلك بالحديث عن الأداة كلفظة في سياق، وخُتم بـ (الأداة والأسلوب)؛ مسلطاً بعض الضوء فيه على اصطلاح (الخروج) و (الغربة) في معنى الأداة.

▪ معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، لعلية عياد، ص (107).

(1) ينظر: لسان العرب، مادة (س ي ق).

(2) معجم علم اللغة النظري للخولي، ص (156)

(3) المرجع نفسه، ص (259).

المبحث الأول:

تفسير السياق والخلاف في معنى الأداة

تذكر كتب النحو عددًا من المواضع التي اختلف فيها النحاة المتقدمون في معنى أداة ما بسبب اختلافهم في تفسير السياق وما قد يقتضيه من معنى، وهذا ما تظهره المادة العلمية التالية:

أ- (همزة الاستفهام): ذكر ابن هشام أنّ هذه الأداة قد تخرج عن الاستفهام الحقيقي لتردّ بمعانٍ أخرى، ذكر منها ثمانية، هي: التسوية، والإنكار الإبطالي، والإنكار التوبيخي، والتقريب، والتهكم، والأمر، والتعجب، والاستنباط⁽¹⁾. ثم قال: «وذكر بعضهم معاني أخرى لا صحة لها»⁽²⁾، وجعل من الإنكار الإبطالي قول جرير [من الوافر]:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ⁽³⁾

وخالفه الموزعي، فقال: «وهذا غفلة منه وسهو، فإنّ معنى الهمزة في ذلك التقرير، إذ المخاطب بالمدح لا يُنكر ذلك في نفسه، ولم يتقدم ما يقتضي النفي لفضلهم حتى ينكره الشاعر ويبطله، وإنّما أراد التقرير، وحملهم على الإقرار بما قاله لهم»⁽⁴⁾. وقال أيضًا: «ووقع لي معنى تاسع، ولم أره لأحد، وهو الامتنان كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾»⁽⁵⁾.

(1) ينظر: مغني اللبيب 1 / 23 - 25.

(2) المصدر نفسه، 1 / 25.

(3) البيت من شواهد: مجاز القرآن 1 / 36، والمقتضب 3 / 292، والسيوطي (17). ينظر: معجم شواهد النحو الشعرية، شاهد رقم (527).

(4) مصابيح المغاني، ص (75).

(5) المصدر نفسه، ص (76). والآية (1) من: سورة الشرح.

ب- (إِلَّا): قال المرادي: «ومن أغرب ما قيل في (إِلَّا) أنَّها قد تكون بمعنى (بعد)، وجعل هذا القائل من ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾⁽¹⁾، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾⁽²⁾، وقوله: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾⁽³⁾، كما نقل عن الأصمعي وابن جني القول بزيادتها، ووصف هذا القول بـ (الغريبة)؛ فقال: «وهذا قسمٌ غريب قال به الأصمعي وابن جني في قول الشاعر [من الطويل]:

حراجيجُ ما تنفكُ إلَّا مُناخَةً على الحَسَفِ أو نرمي بها بلدًا قفرا⁽⁴⁾
أي: ما تنفكُ مُناخَةً، و (إِلَّا) زائدة»⁽⁵⁾.

ت- (إِنَّمَا): نقل ابنُ فارس عن قوم أنَّها قد تكون للتحقير، وذكر استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾⁽⁶⁾، ثم قال: «وهذا ليس بشيء، قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾⁽⁷⁾ فأين التحقير ها هنا؟»⁽⁸⁾. وقال أبو حيان: «و (ما) في (إِنَّمَا) وأخواتها لم تغيّر شيئاً من مدلولها الذي كان قبل لحوق (ما) خلافاً لمن ادعى أنَّها أفادت الحصر فيما دخلت عليه (إِنَّمَا)، وجعل (إِنَّ) للإثبات و (ما) للنفي قول من لم يقرأ

(1) سورة البقرة (150).

(2) سورة النساء (22).

(3) الجنى الداني، ص (521)، والآية (56) من: سورة البقرة.

(4) البيت لذي الرُّمة، وهو من شواهد: سيبويه 3 / 48، والخزانة 4 / 49، والأشْموني 1 / 246.

ينظر: معجم شواهد النحو الشعرية، شاهد رقم (1170).

(5) الجنى الداني، ص (520 - 521).

(6) سورة الكهف (110).

(7) سورة النساء (171).

(8) الصاحبي، ص (183).

النحو، ولا طالع قول أئمتهم⁽¹⁾. ونقل المرادي في هذه الأداة المسألة التالية: «اشتهر في كلام المتأخرين من أهل النحو أنّ (إنّما) للحصر، قال الشيخ أبو حيان: والذي تقرر في علم النحو أنّ (ما) الداخلة على (إنّ) وأخواتها كافة لها عن العمل، فإنّ فهم حصر فمن سياق الكلام لا منها، ولو أفادت الحصر لأفادته أخواتها المكفوفة بـ (ما)»⁽²⁾.

ث - (أو): أداة عطف ذكر النحاة لها عدة معانٍ، منها: التخيير، والإباحة، والشك، والإبهام والتفصيل⁽³⁾. وذكر السهيلي رأيًا طريفًا في معنى (الإباحة) يرجع للسياق، فقال: «وأمّا (أو) التي زعموا أنّها للإباحة، نحو: (جالسُ الحسنِ أو ابنِ سيرين) فلم توجد الإباحة من لفظ (أو)، وإنّما أخذت من صيغة الأمر مع قرائن الأحوال، و (أو) غير معتمدة في هذا الكلام، وإنّما دخلت لغلب العادة في أنّ المشتغل بالفعل الواحد لا يشتغل بغيره، وأنّ المجالس للحسن أو ابن سيرين غير جامع بينهما معًا، ألا ترى أنّ المأمور بهذا لو جمع بين الشيئين المباحين لم يكن عاصيًا، علمًا بأنّ (أو) ليست ها هنا معتمدة، والله أعلم»⁽⁴⁾.

ج - (أي): أضاف الموزعي لمعاني الاستفهام فيها معنيين، كلاهما مستفاد من السياق؛ الأول: الاستفهام التويخي، قال: «ولم أرَ أحدًا ذكره، ولكنه ظاهر كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾»⁽⁵⁾، وإنّ سُمّي هذا المعنى بـ (الاستبعاد) كان حسنًا⁽⁶⁾. والثاني: الاستفهام الإنكاري، قال: «ولم أرَ أحدًا ذكره أيضًا، كقول الشاعر: [من البسيط]:

(1) ارتشاف الضرب 2 / 157.

(2) الجنى الداني، ص (395 - 396).

(3) ينظر: رصف المباني ص (210 - 211)، والجنى الداني، ص (228)، ومغني اللبيب 1 / 72.

(4) نتائج الفكر في النحو، ص (254).

(5) سورة الأعراف (185).

(6) مصابيح المغاني، ص (190).

فأذهب فأني فتى في الناس أحرزه من حتفه ظلم ذي غي ولا جبل»⁽¹⁾.

ح- (السين): المشهور في معناها أنها للاستقبال، ونقل ابن هشام عن بعضهم: أنها قد تأتي للاستمرار لا الاستقبال. قال: «وذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ الْعُرَيْنَ﴾»⁽²⁾ الآية، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ﴾»⁽³⁾ مدعيًا أن ذلك إنما نزل بعد قولهم (ما ولّاهم)، قال: فجاءت السين إعلامًا بالاستمرار لا بالاستقبال»⁽⁴⁾. وقال ابن هشام بعد نقله هذا الرأي: «وهذا الذي قاله لا يعرفه النحويون ... ثم لو سلّم فالاستمرار إنما استفيد من المضارع، كما تقول: (فلانٌ يقري الضيفَ ويصنعُ الجميلَ) تريد أن ذلك دأبه، والسين مفيدة للاستقبال، إذ الاستمرار إنما يكون في المستقبل»⁽⁵⁾.

خ- (قد): أداة تفيد التحقيق مع الماضي والتوقع مع المضارع على المشهور، وذكر الهروي لها معاني أخر استمدها من السياق، كأن تكون بمعنى (ربما) في قولهم: (قد يكون كذا وكذا)، وبمعنى: (إنّ هذا الفعل من عادي)⁽⁶⁾، واستدل له بقول شماس الهذلي من [البسيط]:

(1) المصدر نفسه، ص (191). والبيت للمتنخل الهذلي، وهو من شواهد: معاني القرآن 1 / 164،

والخصائص 2 / 433.

(2) سورة النساء (91).

(3) سورة البقرة (142).

(4) مغني اللبيب 1 / 158.

(5) المصدر نفسه 1 / 158 - 159.

(6) ينظر: الأزهية، ص (212).

قد أترك القرن مُصفرًا أناملُهُ كأنَّ أثوابه مُجَّتْ بفرصادٍ⁽¹⁾

ونقل المرادي فيها معنى (التكثير)، ووصف هذا المعنى بـ (الغربة)⁽²⁾، كما نقل استدلال أصحابه بقول امرئ القيس من [البسيط]:

قد أشهد الغارة الشعواءَ تحملني جرداءَ معروقة اللحين سُرْحوبٌ⁽³⁾

د- (لعل): ذكر الزجاجي لهذه الأداة أربعة أوجه، تحدث في واحد منها عن السياق المقامي بجلاء، فقال: «لها ثلاثة أوجه: تكون شكًا، واستفهامًا، وإيجابًا. فالشك قولك: (لعلَّ زيدًا يقوم)، والاستفهام قولك في الخطاب: (لعلَّ زيدًا يقوم؟) كما تقول: (أَتَظُنُّ زيدًا يقوم؟) تواجه بذلك مَنْ تُخاطب. والإيجاب قولك: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾⁽⁴⁾. ولها معنى رابع، وهو الترجي»⁽⁵⁾. وعن معنى الترجي قال ابن فلاح: «واعلم أنَّ التوقع والرجاء من الباري جلَّتْ عظمتُه مستحيل، لأنَّه عبارة عما جُهلَتْ عاقبته، وإنما يُتصوَّرُ مَنْ يجهل عاقبة الأمور، وأمَّا الباري فإنَّه عالمٌ بالمعلومات كلها، فلا يُتصوَّرُ في حقه الرجاء والتوقع، فإذا وردت في التنزيل كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾⁽⁶⁾، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾⁽⁷⁾، ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

(1) البيت منسوب في بعض المواضع لعبيد بن الأبرص، وهو من شواهد: سيبويه 4 / 224،

والمقتضب 43 / 1، والأزهية ص (212). ينظر: معجم شواهد النحو الشعرية، شاهد رقم (783).

(2) ينظر: الجنى الداني، ص (258).

(3) البيت من شواهد: المنصف 1 / 223، ومغني اللبيب 1 / 197، والسيوطي (169). ينظر:

معجم شواهد النحو الشعرية، شاهد رقم (106).

(4) سورة الطلاق (1).

(5) حروف المعاني، ص (30).

(6) سورة البقرة (189).

(7) سورة الشورى (17).

يَخْشَى ﴿٤٤﴾^(١) فاخْتَلَفَ في تأويلها؛ فقال سيبويه^(٢): إِنَّ الرجاء والتوقع يرجع إلى مَنْ تعلقت بهم، وهم المخاطَبون ... وقال قطرب وأبو علي: إِنَّ معناها التعليل - ويردُّ عليه أَنَّهُ لا معنى للتعليل في مثل: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ﴿٧﴾^(٣).

ذ- (لو): ذكر المألقي لهذه الأداة معنيين استقاهما من السياق، فجعلها في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾^(٤)، ونحو قولهم: (لو أُنِي قَمْتُ فَأَكْرَمَك) للتمني وجعلها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسُكُمْ﴾ ﴿٥﴾ ونحو قولهم: (اعطِ المساكين ولو واحداً) للتقليل بمنزلة (رُبَّ)^(٦).

المبحث الثاني:

الأداة ... لفظة في سياق

حظي السياق ودراسته بعناية كبيرة في السنوات الأخيرة، وشملت هذه العناية باحثين غربيين وعرباً، وقد اتفق جميعهم على دوره في تحديد معاني الكلمات والجمل، فالكلمة - حسب ما يرون - هي الموجودة في سياق؛ بمعنى أَنَّهُ لا يتحدد معناها تحديداً دقيقاً إلا من خلاله، وهي لا تدل مستقلة بنفسها على شيء. وقد قال اللساني الفرنسي (ميللي Meille): «إِنَّ الكلمة الحقيقية هي الكلمة في السياق»^(٧). وقال

(١) سورة طه (٤٤).

(٢) ولهذا قال: «لعلَّ وعسى: طمع وإشفاق». الكتاب 4 / 233.

(٣) المغني في النحو 3 / 137 - 138.

(٤) سورة الشعراء (١٠٢).

(٥) سورة النساء (١٣٥).

(٦) ينظر: رصف المباني، ص (360 - 361).

(٧) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، ص (48).

اللساني الإنكليزي (أولمان Stephen Ullman): «فالسباق وحده هو الذي يستطيع أن يبين لنا ما إذا كانت الكلمة (قريب) مثلاً تعني قرابة الرحم، أو القرب في المسافة»⁽¹⁾. وقال الباحث كمال بشر: «الكلمة منعزلة ضرب من العبث، فلا بد من سياق يُبرز دلالتها، وهو ما اصطلاحوا على تسميته بـ (سياق الحال)»⁽²⁾. وتولي الأسلوبيات الحديثة السياق اهتماماً ملحوظاً وعنايةً بالغة؛ بل إن من فروع الأسلوبية ما تخصص في هذا الأمر، على نحو ما نرى في (الأسلوبية السياقية) التي يعدّ (ريفاتير Riffaterre Michael) ممثلها الأملع⁽³⁾، ويُعنى هذا الفرع بتتبع دور السياق في الكشف عن لغة منتج النص.

والسؤال هنا: هل كان هذا الفهم متحققاً لدى نحاة العربية عند حديثهم عن الأدوات النحوية ومعانيها؟

الحق أن مراجعة سريعة لتراث عالم نحوي كعبد القاهر الجرجاني يُظهر أن هذا الفهم كان متحققاً عنده تمام التحقيق؛ إذ جُلّ في نظريته (النظم) السياق (مقالياً ومقامياً) تجليةً توضح جلاء الفكرة في ذهنه. ولن نشعب أكثر في هذه الفكرة⁽⁴⁾، لأن ما يعيننا في المقام الأول هنا: الأداة بوصفها لفظة في السياق.

تُظهر المادة العلمية المذكورة في المبحث الأول عدداً من الأدوات التي اكتسبت معناها من السياق، كما تُظهر خلاف النحاة في تحديد هذا المعنى، لاختلافهم في تفسير السياق؛ فمن معاني (همزة الاستفهام) الإبطال، وجعل منه ابن هشام قول جرير:

(1) دور الكلمة في اللغة، ص (71).

(2) دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، ص (153).

(3) ينظر: بليت: البلاغة والأسلوبية، ص 60.

(4) توسع الباحث في هذه الفكرة في بحث له بعنوان: من مظاهر الالتقاء بين فكر عبد القاهر في النظم وبعض المبادئ اللغوية لمدرسة لندن، وهو منشور في مجلة الدراسات اللغوية والأدبية بالجامعة الإسلامية العالمية بهاليزيا.

أستم خيرَ مَنْ ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح
وخالفه الموزعي لأنَّ السياق يقتضي التقرير لا الإبطال؛ إذ لا منكر لهذا الفضل،
والمخاطبُ بالمدح لا ينكر ذلك في نفسه.

وكذلك الأداة (إنَّما) التي جعلها بعض النحاة للتحقير مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا
أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾⁽¹⁾، فسياق الآية - ليس غير - هو الذي حدا بذلك النحوي إلى ابتداء
هذا المعنى، ولأبي حيان في هذه الأداة قولٌ طريف في تجلية فكرة السياق؛ إذ قال:
«والذي تقرر في علم النحو أنَّ (ما) الداخلة على (إنَّ) وأخواتها كافة لها عن العمل،
فإنَّ فهمُ حصرٍ فمن سياق الكلام لا منها، ولو أفادتُ الحصر لأفادته أخواتها المكفوفة
بـ (ما)»⁽²⁾.

إنَّ قول أبي حيان هذا صريحٌ في أنَّ الأداة لا معنى لها بمفردها؛ بل إنَّ السياق هو
الذي يكسبها معنى بعينه، وهذا القول يقودنا إلى رد فكرة (أنَّ الأصل في الأداة أنَّ
تدل على معنى واحد)، وهو قول البصريين؛ ذلك أنَّ هذه الفكرة تقوم على النظر إلى
الأداة حال كونها لفظة منفردة منعزلة عن السياق.

وفي هذا السياق يقول الباحث فخر الدين قباوة في معنى الحرف: «وهذا يعني أنَّ
الحرف ليس له معنى معجمي بل معنى تركيبى عام، وأخر خاصة يحددها السياق
الذي يضمه، ف (الباء) مثلاً ذات دلالة عامة على الإلصاق، تُتوهم فيها وهي مفردة
عن الأسماء والأفعال، إلَّا أنَّ هذه التوهم غالباً ما يصاحبها توجيهات مختلفة محتملة،
حتى تنتظمها عبارة تخصصها لمقصد معين، وتزيل عنها سائر الاحتمالات، كذا يجب
أنَّ يُدرك حرف المعنى، ليطمئن بخصوصيته، وتتعين معالم مضامينه في السياقات
المتباينة»⁽³⁾.

(1) سورة الكهف (110).

(2) الجنى الداني، ص (395 - 396).

(3) جذور التحليل النحوي، ص (168).

وبالعود إلى المادة العلمية وإلى الأداة (أو) نجد حقيقة (الأداة لفظة في سياق) بيّنة جلية، وبخاصة في قول السهيلي: «وَأَمَّا (أو) التي زعموا أنّها للإباحة، نحو: (جالس الحسن أو ابن سيرين)، فلم توجد الإباحة من لفظ (أو)، وإنما أخذت من صيغة الأمر مع قرائن الأحوال، و (أو) غير معتمدة في هذا الكلام، وإنما دخلت لغلّب العادة في أنّ المشتغل بالفعل الواحد لا يشتغل بغيره، وأنّ المجالس للحسن أو ابن سيرين غير جامع بينهما معاً»⁽¹⁾.

إنّ رسالة السهيلي في هذا القول واضحة بيّنة؛ فالأداة لفظة في سياق، تكتسب معناها منه ولا قيمة لها من دونه، والقرائن ذات أثر ليس بقليل في تجلية الكلام وتبيين المقاصد. غير أنّ ابن هشام تعجب من هذا المعنى المذكور، فقال: «ومن العجب أنّهم ذكروا أنّ من معاني صيغة (افعل): التخيير والإباحة، ومثله بنحو: (خذ من مالي درهماً أو ديناراً) أو (جالس الحسن أو ابن سيرين)، ثمّ ذكروا أنّ (أو) تفيدهما، ومثلاً بالمثلين المذكورين لذلك»⁽²⁾. وأجاب الموزعي عن قول ابن هشام هذا، فقال: «والعجب من تعجبه، فإنّ الحروف جاءت لمعانٍ في غيرها لا في نفسها، ولكل شيء منها معانٍ مخصوصة موضوعة لها، ولا شك أنّ معاني الحروف والأفعال تستفاد من مقاصد الكلام، وموارد الخطاب، وتركيب الألفاظ، فإذا رأينا العرب قد استعملوا ذلك في معنى لم توضع له في بعض التراكيب، علمنا أنّ اللغة قد وردت في استعمال ذلك، وأنّه جائز في لسان العرب، وأنّهم قد تجوزوا به عن موضوعه»⁽³⁾.

والحقّ أنّ إجابة الموزعيّ هذه إجابة تدافع عن حقيقة أنّ معنى الأداة إنّما يستفاد من السياق، الذي يراعي بدوره: مقاصد الكلام، وموارد الخطاب، وتركيب الألفاظ، واستعمال العرب. وهي من جهة أخرى إجابة تدافع عن حقيقة تعدد المعنى في الأداة،

(1) نتائج الفكر في النحو، ص (254).

(2) مغني اللبيب 1 / 80.

(3) مصابيح المغاني، ص (157).

وعدم لزومها لأصل واحد لا تخرج عنه. والكلام ذاته ينطبق على أدوات ك: إلا، وأي، وقد؛ إذ يكسبها السياق معنى لا يتحقق لها وهي منفردة.

أما السياق غير اللغوي، أو سياق الموقف كما اصطلاح عليه المحدثون اليوم؛ فيقترب من فكرة (المقام) التي أفاض المتقدمون في الحديث عنها، ولا سيما البلاغيين منهم، وقد نصّ على هذه الحقيقة الباحث تمام حسّان حين قال: «ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة (المقام) متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم، لأنّ الاعتراف بفكرتي (المقام والمقال) باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة»⁽¹⁾.

كيف ظهر هذا النوع من السياق في حقل الأدوات؟

خالف الموزعي ابن هشام في إفادة همزة الاستفهام معنى (الإنكار الإبطالي) في قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٍ رَاحٍ

فرجّح معنى التقرير لا الإنكار معتمداً في ترجيحه على السياق المقامي؛ إذ قال: «فإنّ معنى الهمزة في ذلك التقرير، إذ المخاطب بالمدح لا يُنكر ذلك في نفسه، ولم يتقدم ما يقتضي النفي لفضلهم حتى ينكره الشاعر ويبطله، وإنّما أراد التقرير وحملهم على الإقرار بما قاله لهم»⁽²⁾.

ويظهر هذا النوع من السياق كذلك في (سين الاستقبال) التي جعلها بعض النحاة للاستمرار لا للاستقبال في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ الْآخَرِينَ﴾⁽³⁾؛ مستدلاً بقوله تعالى:

(1) اللغة العربية .. معناها ومبناها، ص (237).

(2) مصابيح المغاني، ص (75).

(3) سورة النساء (91).

﴿سَيَقُولُ الشُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ﴾⁽¹⁾، ومدعيًا بأنّ ذلك إنّما نزل بعد قولهم: ﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ﴾، وقد ردّ ابن هشام هذا المعنى لـ (السين)⁽²⁾؛ غير أنّ ما يعيننا هنا أنّ المخالف اعتمد السياق المقامي المتمثل في أسباب النزول وأوليته في ابتداء معنى جديد لـ (السين). وتظهر هذه الفكرة أوضح ما تكون عند الزجاجي حين تحدث عن أوجه (لعلّ) فقال: «لها ثلاثة أوجه: تكون شكًا، واستفهامًا، وإيجابًا. فالشك قولك: (لعلّ زيدًا يقوم) والاستفهام قولك في الخطاب: (لعلّ زيدًا يقوم؟) كما تقول: (أَتَظُنُّ زيدًا يقوم؟) تواجه بذلك مَنْ تُخَاطَبُ»⁽³⁾. إنّ قول الزجاجي هذا صريحٌ في أنّ للمقام أثرًا في تجلية معنى الأداة، فـ (لعلّ) في قولك:

لعلّ زيدًا يقوم.

لعلّ زيدًا يقوم؟

واحدة؛ غير أنّ ما يصاحب السياق المقالي من تعبيرات الوجه، والموقف، والمواجهة - كما ذكر الزجاجي - يجلي معنى الاستفهام، ويفرقه عن معنى الرجاء والشك.

إنّ مجمل ما يمكن أن يقال في هذا المقام أنّ معنى الأداة لا يتحصل كونها لفظة مفردة؛ بل يتحصل حال كونها لفظة في سياق، والسياق: مقال ومقام، ممّا يعني أنّ مقولة: (إنّ الأصل في الأداة أنّ تدل على معنى بعينه) مقولةٌ فيها نظر؛ لأنّ السياق يستدعي التنويع والاتساع، لا المحاصرة والتقييد.

(1) سورة البقرة (142).

(2) مغني اللبيب 1 / 159.

(3) حروف المعاني، ص (30).

هذا؛ وقد أظهرت المادة العلمية اصطلاحات كـ (الخروج) و (الغربة) عند الحديث عن معنى الأداة في السياق، فهل لهذين المصطلحين دلالة ما؟ هذا ما يحاول الدارس تجليته في الصفحات الآتية:

المبحث الثالث:

الأداة والأسلوب

تولي المدارس اللسانية الحديثة اليوم (الأسلوب) (style) عناية فائقة، كما تحرص على الربط بين الأسلوب والنحو، يقول اللساني (جيرو Pierre Guiraud): «لا أسلوب دون نحو، ولا نستطيع أن نثبت العكس، فنزعم أنه لا وجود للنحو بلا أسلوب»، ويوضح بعد ذلك علاقة النحو بـ (الأسلوب) في قوله: «النحو يضبط لنا قوانين الكلام، بينما تتبع الأسلوبية وجوه التصرف به عند استعمال اللغة»⁽¹⁾، ويرى (فريمان D. C. Freeman) أنه من الممكن تحديد الحقل الذي تتحرك فيه الأسلوبية بثلاثة أنماط:

- الأسلوب بوصفه انحرافاً عن القاعدة.
- الأسلوب بعدّه تواتراً أو نوعاً من تكرار أنماط لغوية.
- الأسلوب بوصفه استغلالاً للإمكانات النحوية.⁽²⁾

وما يهمننا من هذه الأنماط في هذا المقام النمط الأول؛ إذ ورد في المادة العلمية اصطلاحان: أولهما: الخروج، والثاني: الغربة، وهما من الاصطلاحات المرتبطة بالأسلوب، وعدوله عن القاعدة.

وقد عقد ابن هشام في كتابه مغني اللبيب فصلاً تحدث فيه عن (خروج الأداة عن معناها الحقيقي)، فقال في مقدمته: «وقد تخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي، فترد

(1) الأسلوبية ونظرية النص لإبراهيم خليل، ص (37).

(2) ينظر: البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب، ص (147).

لشأنية معانٍ⁽¹⁾، وذكر المعاني الثمانية بعد ذلك. وقال السيوطي في (إذ): «وقد ذكر كثير أنها تخرج عن المضي إلى الاستقبال نحو: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾»⁽²⁾.

فما قيمة هذا (الخروج) بالأداة عن معناها الحقيقي؟

الحق أن خروج المتكلم باللغة عن المؤلف يمثل نمطاً أسلوبياً عنيث به الدراسات اللغوية والأدبية منذ أقدم العصور، وخصته الأسلوبيات اليوم بمزيد عناية، حتى حلا لبعض الدارسين أن يعرف الأسلوب بأنه: انحراف عن معيار اللغة⁽³⁾، وقد تعددت اصطلاحات هذا (الخروج) وكثرت، فمنها: الانحراف، والعدول، والانزياح، والإزاحة، والكسر (كسر المؤلف وانكسار النمط)، والغربة، والتغريب،... إلخ⁽⁴⁾.

فإذا علمنا ذلك أيقناً أن خروج الأداة عن معناها يمثل نمطاً أسلوبياً فيه من التفرد، الشيء الكثير، وأيقناً كذلك أن الأداة لا قيمة لها إلا في سياق، وأيقناً بعد ذلك أن لا قيمة للرأي القائل بـ: إن الأصل في الأداة أن تدل على معنى واحد.

هذا عن اصطلاح (الخروج)، أمّا (الغربة) فهي عند أهل المعاني: «كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال»⁽⁵⁾، أو: «أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفته إلى أن يُنقَر عنها في كتب اللغة، أو يُخرَج لها وجه جديد»⁽⁶⁾. واصطلاح (الغربة) مبثوث كذلك في كتب الأدوات وحروف المعاني، وقد ورد في موضعين من المادة المجموعة، كلاهما منقول عن المرادي:

(1) مغني اللبيب 1 / 23.

(2) الإتقان 2 / 145.

(3) ينظر: البلاغة والأسلوبية، ص (147)، ومقالات في الأسلوبية لعايشي ص (47)، والأسلوبية لرابعة ص (44).

(4) ينظر: الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية لأحمد ويس، ص (29 - 70).

(5) التعريفات، ص (207).

(6) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها لأحمد مطلوب، ص (537).

الأول: في الأداة (إلا)، قال: «وَمِنْ أَغْرَبَ مَا قِيلَ فِي (إِلَّا): أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى (بعد) وجعل هذا القائل من ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَالْأَلَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾⁽¹⁾، كما نقل عن الأصمعي وابن جني القول بزيادتها، ووصف هذا القول بـ (الغربة).

الثاني: في الأداة (قد)، إذ نقل عن بعضهم أنها قد تكون للتكثير، ونقل استدلالهم بقول الشاعر:

قد أشهد الغارة الشعواء تحملي جرداءً معروقةً للحين سُرْحوبٌ
ووصف هذا المعنى بـ (الغربة)⁽²⁾.

وينبغي التفريق بين مفهوم (الغربة) عند المرادي، ومفهومه عند البلاغيين والأسلوبيين؛ فالمرادي عندما يصف معنى أداة بـ (الغربة) إنما يقصد أنه معنى غير معروف، لم يتوافق عليه، وهذا واضح من كلامه، ومن ثمَّ فإنَّ هذا المعنى مرفوض غير مقبول، وربَّما كان موقفه هذا نابعاً من كونه مناصراً لقاعدة: إنَّ الأصل في الأداة أن تدل على معنى واحد. أمَّا (الغربة) في الدراسات البلاغية والأسلوبية فهي خروج عن المعيار، لها أثر في النفس، وفيها نوعٌ من الطرافة والتجديد، كما تضيف على السياق اللغوي صفتي: الإبداع والجمال، بخاصة أنَّ النفس الإنسانية تَوَّاقَةٌ إلى التغيير والتجديد، وتجاوز المكرر الرتيب الجاهز.

فإذا علمنا ذلك جاز لنا أن نعدَّ (الغربة) في استعمال الأدوات نمطاً من أنماط تعدد المعنى، تضيف على السياق نوعاً من التجديد والتشويق، وجاز لنا أن نقبل هذا الاستعمال ولا نرفضه.

(1) الجنى الداني، ص (521).

(2) المصدر نفسه، ص (258).

خاتمة

حاول هذا البحث أن يدرس تراث بعض نحاة العربية في التعامل مع الأداة في السياق، وخرج في نهايته بالنتائج الآتية:

■ الأداة لفظة في سياق، تكتسب معناها منه ولا قيمة لها من دونه، والقرائن ذات أثر ليس بقليل في تجلية الكلام، وتبيين المقاصد.

■ معنى الأداة إنّما يستفاد من السياق الذي يراعي بدوره: موارد الخطاب وتركيب الألفاظ، واستعمال العرب. والسياق: مقال ومقام، وهو يستدعي التنويع والاتساع، لا المحاصرة والتحديد.

■ خروج الأداة عن معناها يمثل نمطاً أسلوبياً فيه من التميّز، والإبداع، والأسر، والجذب الشيء الكثير.

■ في قاعدة (أنّ الأصل في الأداة أن تدلّ على معنى واحد) نوعٌ من التقييد، لا تقبله اللغة، ولا يطيقه الكلام ولا المتكلمون؛ فليس الأصل في الأداة أن تدلّ على معنى واحد؛ بل الأصل فيها التنويع والاتساع.

مصادر البحث ومراجعته

- * الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1987 م.
- * ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق وتعليق: مصطفى أحمد النحاس، مطبعة المدني، القاهرة، 1989 م.
- * الأزهية في علم الحروف، علي بن محمد الهروي، تحقيق: عبد المعين الملوحي، ط (2)، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1981 م.
- * الأسلوبية ... مفاهيمها وتحليلاتها، موسى سامح ربابعة، دار الكندي، إربد، 2003 م.
- * الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997 م.
- * أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، كريم زكي حسام الدين، ط (3)، الرشاد للطباعة، القاهرة، 2001 م.
- * الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، أحمد محمد ويس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2005 م.
- * البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984 م.
- * البلاغة والأسلوبية (نحو نموذج سيميائي لتحليل النص)، هنريش بليت، ترجمة: محمد العمري، ط 2، المغرب، دار إفريقيا الشرق، 1999 م.
- * التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، 1987 م.

- * جذور التحليل النحوي في المدرسة القرآنية القديمة، فخر الدين قباوة، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، 2007 م.
- * الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992 م.
- * حروف المعاني، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة بيروت، ودار الأمل بإربد، 1986 م.
- * دراسات في علم اللغة، كمال بشر، دار المعارف، القاهرة، 1969 م.
- * دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة وتقديم: كمال بشر، ط (12)، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1997 م.
- * رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، ط (2)، دار القلم، دمشق، 1985 م.
- * الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن زكريا بن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1977 م.
- * القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط (4)، مؤسسة الرسالة، بيروت 1994 م.
- * كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، 1991 م.
- * كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تقديم: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل: عبد الله الخالدي، ترجمة: جورج زيناتي، مكتبة لبنان، بيروت، 1996 م.
- * الكليات، أبو البقاء الكفوي، مقابلة وإعداد: عدنان درويش ومحمد المصري، ط (2)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1982 م.

- * لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ط (3)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1999 م.
- * اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979.
- * مصابيح المغاني في حروف المعاني، ابن نور الدين الموزعي، تحقيق: عائض بن نافع العمري، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993 م.
- * من مظاهر الالتقاء بين فكر عبد القاهر في النظم وبعض المبادئ اللغوية لمدرسة لندن، عامر فائل بلحاف، العدد (2)، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، الجامعة العالمية الإسلامية، ماليزيا، 2012 م.
- * معجم شواهد النحو الشعرية، حنا جميل حداد، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، 1984 م.
- * معجم علم اللغة النظري، محمد علي الخولي، مكتبة لبنان، بيروت، 1982 م.
- * معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، ط (2)، مكتبة لبنان، بيروت، 1996 م.
- * معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، محمد حسن باكلا وآخرون، مكتبة لبنان، بيروت، 1983 م.
- * معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، عليّة عزت عياد، دار المريخ، الرياض، 1983 م.
- * المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط (2)، دار الفكر، بيروت، 1981 م.
- * المغني في النحو، ابن فلاح اليميني، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000 م.

- * مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1999 م.
- * مقالات في الأسلوبية، منذر عياشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1990 م.
- * نتائج الفكر في النحو، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق: محمد إبراهيم البناء، ط (2)، دار الاعتصام، القاهرة، 1984 م.